لغة العرب

مجلة شهرية أدبية علمية تاريخية

الجزء ٥ من السنة ٧ عن شهر ايار (مايو) سنة ١٩٢٩

حضارة الاسلام ومفكروه

La Civilisation et les Penseurs de l'Islam .

« مفكرو الاسلام » لكرا دى فو (تتمة)

الجزء الثالث

حقا ان جزءه الثالث يستحق مركزا لا شك فيه كونه عظيما ، ولاسيما بين قرائنه الشرقيين ، لما يجمعه الدرس من المسائل التي تهم الكثير منهم فمن بحوث عن بلاد فارس قبيل الاسلام وكذلك عن البلاد العربية ، الى بسط حياة نبي الاسلام ، فقيام الدعوة الى الافتتاح العربي الهائل ، الى اخبار معاوية وقيامه بالحرب ثم بانعياد الخلافة الاموية ، الى غير هذه مما يسد فراغا عظيما ويؤدي الى القارئ خدمة واسعة . وقد احسن البارون العلامة كل الاحسان ، ان اتى بطرفة : كافية ولو انها وجيزة ، مناسبة لحالة الكتاب وضخامة موارده الثمينة من تاريخ الفرس قبيل الاسلام واحسن ايضا ، اذ جعلها فاتحة هـذا الجزء ، ولاسيما اننا في عهد من مستلزماته التفسير الوافي والايضاح الكافي ، الذي لاغنى فيه عن سبق البحث ، بنظرة سالفة وجيزة ، فالمرء يتنقل هكذا ، من الابتداء الى الانتهاء ، فيقف على تطور الحوادث ، وتقلبها السريع والبطيء والعوامل التي

ادت اليها وعلم جرا ، وبذا يلم باطراف الموضوع جميعه ، ومن ثم يلج الى النتيجة المنشودة ... وقبل ان اصف شيئا ابدي تألمي ، لما خصني به الطابع والناشر ، في هذا الجزء ، من سوء التجليد ، فان شطره الاول ويا اسفا قد تداخلت صفحاته الاولى في الاخيرة ، واستهلت هذه مكان تلك واستبدت وتعدت باغتصاب مركز غيرها ، فاكسبتني تعبا ، واضاعت مني وقتا ، فيا لسوء الحظ !! والان فلنهرول ولنتسلل من بين اضطراب الصفحات ، وتعانق الاوراق المتباينة المواضيع ، شيئا عن دولة الاكاسرة في سلطتها ، وعنفوان مجدها حتى القفيل قبيل انحلالها فسقوطها في قبضة العرب ... يحدثنا المؤلف عن كسرى انوشروان وحربه ليستنيانس ثم عن اهتمامه بامور مملكته الواسعة ، وترقيتها وتحصينها في كافة الجهات خوف غارة الاعداء المرتقبة دواما من جانب اعدائه الزرق من نواحي قاف (القوقاس) وصورية ، وفي ايامه رتعت فارس في بحبوحة العيش اذ بملكه الطويل الاجل الذي قارب نصف قرن تقدمت الزراعة وتحسنت طرق القوافل وانشئت سبل التواصل ، فاستحق لقب « العادل » الذي وصفه به نبي الاسلام « مع انه كان يكره الاعاجم » . واتى هرمز ولده فعكس سياسة والده الرشيدة ؛ ففي ايامه هوجمت بلاد العجم من نواحيها جميعا ، فخان الاتراك هاجمها في ثلثمائة الف راجل وفارس ، وامبراطور الافرنج في ثمانين الفا ، وكذلك شعوب بحر سيرجان والعرب ايضا .

فترى ان الامبراطورية الهائلة احيط بها من جهاتها الاربع ؛ ولكنه ارسل الى الاتراك قائدا لبيبا شجاعا يدعى بهرام ، الذي بسهم منه ازهق روح خان الاتراك ، ومن ثم تفككت عرا هؤلاء ، فولوا وتفرقوا جذع مذع ولكن حيث ان هرمز كان طاغية مستبدا بالعظماء والاشراف ، وقد اطبار من رؤوسهم الشريفة العدد العديد ثاروا عليه بقيادة بهرام هذا فاجبروه على التنازل وبعد مشاحنات بين ولده خسرو ابرويز وبين بهرام الخارج ، سافر الاول الى بوزنطية وحل ضيفا كريما على امبراطورها ، وتزوج ابنته الاميرة ماريه ، ثم خنق اتباعه اباه الضرير دون ادنى معارضة من لدنه ، واعطاه امبراطور البوزنطيين جيشا مؤلفا من ستين الف محارب ، وبه تمكن من الاستيلاء على ديار

المفقودة ؛ وفر بهرام الى بلاد الاتراك جيرانه ، واجاز ابرويز رجوع الجيش البوزنطي بعد مكافأتهم خير مكافأة ، ودخل عاصمته المدائن ظافرا . وقد حاول ان ينتقم من بهرام الخائن فتمكن من رشوة زوج الخان ، وهكذا قتل المغتصب اما زوجته او بالحقيقة اخته اذ يجوز في شريعة الفرس زواج الاخوة فسافرت الى بلادها بعيد قتلها اخا الخان الذي رامها حليلة . وهناك شكرها ابرويز على نصحها بهرام ولومه في ثورته ، وتزوجها وتزوج ايضا شيرين الجميلة التي كادت تجلب على رأسه من سخط الشعب ثورة نارية رائعة ، لان زوجته الجديدة كانت وضيعة الاصل غير جديرة — على زعمهم — بهذا المركز السامي ... واتفق ان هاج الشعب البوزنطي على موريق والد زوجة ماريا واتى ولده مستجدا العجم . فارسل ابرويز على الفور جيشا لجبا لرد العرش الى اهله ومعاقبة المغتصب ... وتمكنت احدى فرقه من الاستيلاء على اورشليم ، وتوصلت الى الاهتداء الى الصليب الاقدس في حقه الذهبي فدفنه في حديقته . ثم تولى بعد ذلك ملك بوزنطية هرقل — الذي تم في ايامه افتتاح العرب سورية — وفي حكم ابرويز تمت واقعة « ذي قار » التي يهللها العرب .

... وكان في نفسه نزعه شائنة ، الى سفك الدماء ، وازهاق ارواح العباد فكان حكمه قاسيا جدا ، حتى قال هو نفسه ، انه منذ السنة السادسة والعشرين من حكمه الى الثامنة والثلاثين ، « لم تكن السعادة تتحرك إلّا بحسب ارادته » اي لم يكن امر يحصل إلّا بموافقته فقام هذا الاستبداد الوحشي ، ثار الشعب وولى ابنه ، من الاميرة ماريا ، مكانه . ثم اجبر هذا الابن المسكين ، الذي كان الغوية في ايدي كبار الدولة ، على الامر بقتل والده ، فازهقت روحه بالفأس وقد سر موته البلاد العربية ، وعلى الاخص نبي الاسلام ، الذي كان وقتئذ في المدينة ، فقد علم ان موت هذا الملك الصنديد ، يجعل بلاد العجم بأسرها فريسة باردة ؛ لاي مهاجم فاتح ، واستنتج ، ماتحقق بعدئذ على ايدي الصحابة ووطنيه ... وانتحرت شيرين على قبر خسرو بعد ان نفتضمر النديه .

وبعد ان اكمل ابن خسرو ابرويز عقوقه ، بقتله اخوته السبعة عشر ، كما طلب اليه الكبراء والاشراف ، تملكته السوداء ، ومات بعد حكم ثمانية اشهر ،

ملعونا من السماء والارض، ومنذ ذاك الوقت اسرعت فارس في خطاها الواسعة، نحو الهوة والخراب. وفي زهاء ست سنوات، تعاقب على حكمها ستة ملوك، بينهم امرأتان، من بنات ابرويز، فالاولى، كانت ذات مقاصد حسنة، وقد ارجعت الى امبراطور الاغريق الصليب المقدس. وبعد هذا التدفق الملوكي على العرش الفارسي، ارتقى اخر ملك من بني ساسان، المدعو يزدجرد، وكانت دولته اذ ذاك، في غاية من التضعضع وسوء الادارة، والارتباك. فما كانت السنة التالية لحكمه القصير، إلا والفتح الاسلامي يمد يده المسلحة نحو بلاده المرتبكة، فحارب بشدة وبطولة. لكن عبثا، وبعد ان كان لفارس اعز مكان، وارهب ذكر، سقطت هذا السقوط المتكمش واستولت العرب عليها واحقت دولة الساسانيين، بعد ان عاث آخرو ملوكها فسادا وزرعوا الشر فيها فحصدوا ما زرعوا.

وننتهي الى بلاد العرب في الجاهلية، فنرى بعض بحث ونقد عما يشاع عن الجاهلية، ونجد تاريخ اليمن وهذا كما نعلم لها مركزها الحقيقي، في عهد الاعاجم والاحباش. فلا جرم ان تلاسنتها العرب بعد اسلامها. وللمجد اثار، قد تؤدي الى الخرافيات. كما حدث. واذا ذي نواس يهاجم نجران المسيحية، فيهدمها ويدعو الى اليهودية، ويعمل السيف في اهلها. فيمحقهم، وترقص في الهواء رؤوس عشرين الفا! وترشد المصادفات وسائل الهرب من هذه الجحيم الانسانية، لاحد ابنائها التاعسين، مستنجدا شهامة قيصر الروم (١)؛ وهذا يبعثه الى الاحباش: وهاهي ذه الجيوش تخترق العباب لمساقية الجاحد الظالم. وها نحن اولاء وقد انتهى كل شيء، واستولى ابرهة على اليمن فيا للاجارة من الرمضاء بالنار! فاستجاروا بالفرس، فانقذوا انهم جيشا، انقذهم من وبال الحبشة، ولم تطل هذه، حتى ظهرت الدعوة الاسلامية، وكان من امرها المعروف ان انضمت اليمن تحت اللواء الموحد.

ان تأخذ على كرا دي فو امرا في هذا الموضع: فنحن نستغرب منه اشد الاستغراب، ان اهمل كل الاهمال، الاب المأسوف عليه اويس شيخو، فهو

(١) يستينس. «ل. ع»

كما نعلمه نحن وكل شرقي . قد كان مختصا بالجاهلية ، وتآليفه عنها في غاية الاهمية . وليست مركزها الجدير بعناية المستشرقين . ولا تعلم المقصد من عدم ذكره في قائمة الكتب القيمة الثمينة التي ذكرها ؛ في مذكرته عند الاستهلال ولعله يتداركها في طبعة تالية .

يحدثنا كرا دي فو عن اديان العرب في الجاهلية غير المسيحية ولا المتأثرة بتعاليمها وبتعاليم اليهودية فيخبرنا مثلا عن الصابئة وما يظن عنها وانها دين ابراهيم الخليل وحيث ان هذه اقرب الى الوثنية فلعل العرب عكست اسم ابراهيم عن بهرام الفارسية وبرهما الهندية وقصة النار التي يلصقها العرب بابراهيم والقاء نمرود الطاغية له فيها فنجاته بمعونة العلي تروى عند المزديين اي المجوس وتنسب الى بهرام الخ . ثم عن تحطيم النبي لاصنام الكعبة الستين والثلثمائة .

ونمر فاذا اخبار قس بن ساعدة وزيد بن عم عمر بن الخطاب فورقة بن نوفل فامية بن ابي الصلت وقد اطال البحث عن الاخير خاصة اذ ليس من باحث في اخبار الجاهلية لا يعنيه بهذا الشاعر الفرد فلامية شذوذ عن سائر شعراء ذلك العهد اذ طالما اتى بافكار قلما ذكرت واقول بل لم تذكر قبلا عن احد الشعراء في زمنه « وهذا مما يزيد شعره قيمة ويكسبه حلة انقى ويجعله الى عواطفنا اقرب دون اكثرية الشعر الجاهلي ... ونجده اقرب الى مزاجنا واوقى الى طبيعتنا من اشعار الشنفرى والنابغة وغيرهما (١)» . اما دي فو فادار سكان بحثه تجاه فلسفته الدينية واشتقاقها — فانه يعزى الى امية الحنيفية كما يعزى دين الصابئة الى ابراهيم الخليل وفي ذلك من الخلط الفاحش ما فيه — ويقدم لنا بعض شواهد من شعره .

والان فاذا نحن بحياة صاحب الحركة الهائلة النبي محمد . فيحدثنا عن نشأته وتجارته في سورية والحجاز فزواجه بخديجة فنشره الدعوة الى الاسلام ومهاجرته الى المدينة حين ابى المكيون قبولها وناهضوه حيث القي اذنا صاغية سميعة .. فحروب بدر واحد وغيرها الى تمام تغلبه على الاكثرية وسحقه معارضيه . وانتشار الاسلام دينا قويا في بلاد العرب وموت النبي ومن ثم نشأت من بعد حب

(١) مقالنا : امية بن ابي الصلت: المشرق ٧:٤٩٤ (١٩٢٨) .

الاكتساح وتدويخ الامصار واذا بالاهبة تتناول محلها في صدور العرب الجائشة فتخرج عن عزلتها . وتتناول من جهة الشمال سورية فواقعة اليرموك الشهيرة واندحار الروم والسوريين . ثم استيلاء العرب على دمشق الشام درة المشرق . فالانتصار الرائع واعتزاز الاسلام بعد وقوع جميع هذه البلاد التي تلاطم منبعه وما كان بينها من الصلات . ثم نرى فاذا امر ينبثق فجر من سجوف المعارك والملاحم الشعبية وينكشف الستار عن ملك حكيم وملك عظيم . واذا الخليفة المقدام معاوية الاول ودولته الاموية ففي هذا الخليفة وهذه الخلافة قويت شوكة الاسلام وامتدت سلطته الى اقاصي البلدان وهو من علم العرب — او كان العامل الاول في رزقهم — فنون البحرية . وهو كان ينهض فيهم الهمم والاهتمام بجميع الامور . كما كان يود تقدمهم ورقيهم ويتخذ لذلك امره وكما يقول العلامة الاب لامنس « يريد تثقيفهم وتدريبهم على احترام السلطة الحاكمة باديء بعائلته الخاصة . . »(١) لاننا نعلم عادة العرب وثورتها اذ كانت في بحر جاهليتها على السلطات الحاكمة ونقضها كل حكم لمعاوية ود من الصميم ارشادهم الى طرق الحياة المثلى وكان كما يقول عنه البارون « ملكا عاملا » وقد ترك من الذكر الحسن هالة لامعة حول ذكرى بني امية وكان له من مشاعره الحية ورقة احساسه وكرمه وحلمه على الغير ماحببه الى القلوب وجذب اليه العواطف التي هي اشد جموحا وصدودا . وقد تبسط عنه ذوي قربى في هذا الجزء كثيرا وبسط آيات حكمه وحلمه من جميع جهاتها واثنى عليه وعلى اقتداره في القيام باعباء الملك . والحق يقال انه لو ارادت سورية ان تعطف على من تناوبوا الحكم على كرسيها منذ عهد حيرام وايتوبعل الزاهر الى يومنا هذا من ملوك وحكام ذوي صولة وهيبة نظروا اليها بعين البتوة — فلا مشاحة ان معاوية له بينهم مركز سام فالاسلام قد وجد فيه خير خليفة وحاكم عادل اذ هو الرمز المنير والقدوة اللامعة في تاريخه .

(١) راجع P. H. Lammens. - Etudes sur le Règne du Calife Omaiyade Mo'âwia I er.- Mélanges de la Faculté Orientale . (T. I. p 24). « قدرس العلامة الاب لامنس عن معاوية » هو امتع بحث ظهر مطولا عنه الى الان، وجدير بالمراجعة من كل شرقي يود البيان الوافي عن هذا الحاكم العظيم (وقد نشر بحثه هذا على حدة) وكذلك ما نشر عنه في تاريخه الشهير عن سورية .

وبلغت دولة بني امية علاها وذراها في ايام عز عبد الملك ـ ووالده يزيد ـ انما كانت بلاد العرب وفارس والعراق تلتهب ثورات وانتفاضات . ولا يخفى على القارئ ابن الزبير . فكان والحالة الخطيرة هذه لابد لدعم وتثبيت السلطان من وال صخري الفؤاد فولاذي الارادة وكان واجبا ان تقذف الصحراء العربية هذا المثال ـ وكان ان لفظته . واذا شبح الحجاج المرعب ينكشف عنه الستار فيرسل صاعقة غضب ونقمة . وجال هذا جولاته المدوية مابين مكة والعراق فباد الثوار والخوارج وحقهم محقا واجرى من الدماء انهارا وطفحت المحابس والمطابق بما لايقل عن خمسين الف رجل وثلاثين الف امرأة حسبما وجد فيها عقب وفاته . وعليه فويت شوكة هذه الدولة واشتد ساعدها وامتدت اصولها من الشرق الى الغرب الى ان ظهر السفاح والمنصور وقد ابتدأ الخمول والانحلال يدبان فيها فلاشياها فتأسست على انقاضها الدولة الجديدة : دولة بني العباس .

ثم نلاعب صفحات فنحن نقرأ عن الحديث الكريم وعن اوائل رواته كابن عباس وعائشة وابي هريرة وسواهم من اصحاب الاسناد . ثم نجد بعد ذلك جماعة كالبخاري ومسلم كما يتلوه فصل واسع في الفقه وفي المذاهب الاربعة وائمتها العظام ففصل في تحليل المؤلفات الذائعة الصيت في الشريعة والفقه الاسلاميين ثم يختم الجزء عن مفسري القرآن .

الجزء الرابع

ان هذا الجزء الرابع لا يقل اهمية وتقديرا عن سالفه فهو بما حواه عن الفلسفة (المدرسية) (١) وعلم اللاهوت والتصوف والموسيقي لغاية في الفوائد ويبتدئ فيحدثنا عن الحكماء : ونحن نعلم ان معالم (مدارس) الحكمة العربية منقسمة الى قسمين احدهما : المدرسة الشرقية ؛ والثاني : المدرسة الغربية . ولهذا بدئ الكلام اولا عن الشرقية واركانها الفحول : الكندي والفارابي والرئيس ابن سينا . ثم تلتها الغربية واسنادها : ابن رشد وابن الطفيل .

لما كان مرجع الفلسفة العربية ـــ وبكلمة اوضح « الاسلامية » ـــ الفلسفة

(١) راجع ما اوردناه قبلا عن كلمة Scolastique (لغة العرب ٧ : ٢٨٠) فسنعبر عنها بايرادها باسم « الفلسفة المدرسية » او بما عبر عنها السلف بلفظ « الحكمة » . (م.س.ك)

اللاغريقية : السند والمأخذ للفلسفات جميعها . كان لا بد من مترجمين لهما . فبرز حنين بن اسحق فانبه اسحق فابو بشر متى . فانحفوا العربية بمعربات كتب ارسطو وافلاطون وكان لابد لهذه من مفسر عبقري كي لا تندثر فوائدها فتضمحل . فاهدته كندة الى العربية وخرج فيلسوف العرب راس الزاوية في اسفتهم : الكندي الشهير فتناول وبحث وشرح والف ما يربو على المائتو الخمسين رسالة في سائر العلوم ومختلف المباحث وتلاه الفارابي اي « المعلم الثاني » كما ارادت العرب ولقبته اي الثاني بعد ارسطو ثم الرئيس ابن سينا . وقد بحث دي فو عن اعمالهم وشرح فلسفتهم شرحا وافيا .

اما المنوسية الغربية فتستهل بابن الطفيل وقصته الفلسفية الشهيرة المسماة « حي بن يقظان » ترجمت مرات عدة الى الفرنسية والانجليزية واللاتينية ويظن العلامة كرا دي فو انها تشبه قصة روبنسن كروسو الانجليزية المعروفة في الشرق من حيث وجود رجل منذ ولادته في جزيرة نائية عن سطح البسيطة ثم قيامه بحسب ارشاد عقله وتجاربه العملية ان يصل الى مستوى سائر البشر في ادارة دفة حياته . وترتيبها وتغذيتها بالعلوم والاصول الفلسفية والصوفية . انما نحن نعرف ان « حي بن يقظان » يخالف قصة روبنسن كروسو من حيث ان الاخير الجأته الطوارئ وهو شاب الى تجشم هذه المشاق . ويظن دي فو ان بين هاتين القصتين اتصالا عميقا اي ان قصة ابن الطفيل كانت الالهام الذي اوحى الى « دانيال ديفو » بتصنيف روايته الخالدة . وهذا قريب الاحتمال سهل الحصول !

ثم يحدثنا عن ابن رشد ومؤلفيه الشهيرين تهافت التهافت وكتاب الفلسفة وسواهما ثم تتعرض كيفية دخول الحكمة العربية في المدارس اليهودية والمسيحية ومبلغ تأثيرها السالف . ومن تأثر وتفقه بها من ابناء الغرب في القرون الوسطى .

وترى فاذا امامنا ايضا تتهادى في تؤدة ورفق الجمعيات السرية من قرامطة واخوان الصفا والصابئة . مما كان لها وجود فلسفي وذات اثر في تاريخ الاسلام فتتدرج الى سبب انتشائها وفلسفتها واعمالها وكيفية اتحاد

الاعضاء بعضهم ببعض. وقس على ذلك وهو ياتي بمقتطفات من كتبها الشهيرة اورسائلها اوتعاليمها .

ويأخذنا دي فو الى علم اللاهوت فياتينا ببحث في علم الكلام — كما يقول العرب — والمتكلمة والمعتزلة في الاسلام . ويستفيض فيها وكذلك عن ابن حنبل والغزالي وكتبه الشهيرة كتهافت الفلاسفة والمقاصد ثم افكاره الفلسفية وينتقل الى غيره مما نحيل عليه القراء الكرام .

امامنا الآن احد اللذ البحوث واعمقها تأثيرا في الاسلام : الصوفية . ويحسن بنا قبل ان نتعمق فيه ان نقول هنا ان هذه الصوفية هي غير الثيوصوفية الهندية التي تنفث سمها الزعاف المموه بالوان الذهب وعميدتها اليوم المسز بزانت فتسم الافكار وتذل النفوس الظمأى الى « العجائب والاثار » !!!

يبتدئ دي فو بالتحدث عن الصوفية وانتشارها الى ان يوصلنا الى ابن منصور الحلاج ضحيتها واحد كبار المتصوفة الاسلاميين وعن التأليف الضخم عن حياته وتصوفه واستشهاده الذي ابرزه المستشرق المعروف ماسنيون منذ عهد غير بعيد . واشتهر الحلاج اينما سار وحيثما توجه في الهند وتركستان وخراسان وخوزستان والبصرة وبغداد . واهميت عليه الالقاب الحكمية الرنانة ونسب اليه ان اتحاده بالله هو اوثق عرا من اسلافه لما توهم عنه من المعجزات المدهشات ؟! قيل ان احد اعدائه لطمه ذات مرة فناشده الحلاج الله ان يشفي لطمته فلما اراد شلت يده ! وظلت الشهرة والخصومة تتناوبانه حتى امر بقتله المقتدر فقاظ عام ٩٢٢ م .

ثم نجد محيي الدين بن عربي الصوفي الاندلسي الشهير . فاخباره العجيبة ثم نجد الشاعر المتصوف ابن الفارض ومن لا يعرفه ؟ قد شبهه احد المستشرقين فالرحا (في اشعاره القصيرة) بشعر ارك الشاعر الايطالي . واذ ننتهي بكلمة مستفيضة عن تراجم الاولياء في الاسلام نصل الى فصل يتناول موضوعا ليس دون غيره خطورة ولا ادنى اثرا من صاحبه في الاسلام : الارتياب اي السوفسطائية . . . كيف لا واكثر نوابغ الشعراء فيه اصابهم واو جانب من الداء المريب فممن ناله بعض التلوث : ابو دلامة وابو نواس وابو العتاهية حتى المتنبي نفسه علق

بعض الشيء « انما الشخص الذي يذكر عادة كأبرز ممثل للذهن الشكوك في الآداب الاسلامية القديمة لهو الشاعر الضرير : المعري » صاحب اللزوميات ورسالة الغفران وسقط الزند وما اليها من بدائع الكتب . وقد داخله الشك اولا في دينه ثم عقبه في غيره من المعتقدات والاديان بما ولده في نفسه العكوف على درس الديانات الاخرى وفلسفتها ولا ريب ان المحن والمصائب التي حلت بساحته كان لها اليد الطولى في تحويل وجهة ذلك الخيال المتدفق العظيم وسوقه في بحار الشك واليقين المتعاركة المتلاطمة فرجحان الاولى في غالب اعماله . فمن فقدان نعمة البصر فرأفة الوالد فحنو الام الحنون الى عبث الايام وسخر الانام كل هذه افاضت عليه من التشاؤم المحزن والشك المرائم حالة نفسانية خلابة اثرت في ايامها ومن بعدها اثرا عظيما في النفوس الكبيرة .

ونعثر بعدئذ على الخيام مرسل الرباعيات الشهيرة وصديق حسن بن الصباح الذي صار فيما بعد شيخ الجبل او رئيس طائفة الحشاشين وصديق نظام الملك ايضا الذي غدا وزيرا لملك شاه — وتتمثل لنا حياته وصوفيته ووجهة نظره في الحياة وشكوكه في الآخرة فوصفه الخمرة . . . ثم نصل الى حافظ وهذا ايضا من اصحاب الرباعيات : فسعدي وامثالهما من فطاحل الشعراء الفرس الذين لهم في نفوس مواطنيهم وشعوب كثيرة حرمة عظيمة لما يكتنف اشعارهم من الجاذبية والجمال والسحر الحلال .

مما لا شك فيه ان عشاق الموسيقى الشرقية يهمهم هذا الفصل الذي يختم بهذا الجزء الرابع ويجري موضوعه في هذا المسلك من الفن نمذاء النفوس الساكنة الثائرة . ولا نظن ان لا نجد فيه شيئا طريفا . كلا ! بل هو كسائر بدائع هذا الصرح تستنبطه اراء جديدة ونظريات لها ماهيتها عند اربابه مع كلمة عن جميع الكتب التي اختصت بالغناء والآلات الوترية .

الجزء الخامس

والآن ها هو ذا الجزء الخامس والاخير من العمل العظيم وبه تختم هذه السلسلة الملأى بالاراء والزاخرة بالفوائد التي تتدفق فيه تدفقا ويمتاز عن اخوته بما يتخلله من العصريات . فقد خصص معظمه بالبلاد الشرقية التي تلهبها النهضة

الحديثة او تكاد . ونمر في هرولة وتعجل: فاذا الطوائف والنحل والشيع تتراءى امامنا على هذه الصفحات واخبار منابذتها واضطراباتها تتخيل لنا ما بين حين وآخر فنجد الامام عليا وتحزب بعض افراد ونشوء اشياعه تليها اخبار الاسماعيلية والقرامطة فالحشاشين وهي فرع من الاسماعيلية الطائفة التي كان ديدنها سحق من يخالف مبادئها السياسية وقصدها فقتلت وابادت الكثير من الفرنجة والعرب واجبرت صلاح الدين الايوبي نفسه مع عظمته وجبروته على فداء حياتها باتاوة وصونها بالمال الوفير ... ونجد ايضا الدروز الذين يتملكون اليوم حوران وجزءا من لبنان . فنعرف كيف سبب جنون الحاكم ودعواه الالهية نشوء هذه الشيعة ولما لهذه الطائفة من حوادث ومواقع جمة في انسان في بطون التاريخ تبسط كرادي فيها وتحدث ايضا عن الموارنة وهما — كما نعرف كلنا — في بعض صفحات التاريخ الاعداء الزرق وفي صفحات اخرى الاصدقاء الاحباء مراعاة لما تقتضيه السياسة والمصالح . ثم نمر بحياة اكبر امراء لبنان . وهما اثنان . اولهما فخر الدين المعني الملقب بالكبير ونرى سبب تقدم بلاده العزيزة في اثر رجوعه من بلاط آل مديشس بفلورنسة الى ان سابق له الحظ الوقوع بين اظفار آل عثمان الحادة — ويا لها من اظفار تنزف الموت الزؤام — فقضى ضحية زكية . ونجد الامير بشيرا فخر لبنان يتلوه . فمن حوادث ملكه العنيفة وصعوده وهبوطه حتى قيض الله له ان تسمى به الاعداء فيسقط من رفعة عدده بعد مجاهدة الابطال فذهب الى الاستانة منفيا حيث عاش الى ان حلت به نائبة الموت فودع نور العينين وكله حسرات وآلام .

نصل بعد ذلك الى البابية فالبهائية وليدتها وقد اخذت مكانا في الكتاب جليلا لاهميتها وبدئها وانتشارها كان تابعوها مضطهدين يشدد عليهم النكير جميع من في بلاد العجم . وكم من مذابح وكم من لعنات ارسلت عليهم ولكنهم صبروا وقاوموا حتى كان للبهائية من ابناء سورية (وبالاخص) دعاة في اميركة حيث نالت بعض النجاح عند الشعب الاميركي وكيف لا وهو دو الداء العشقي للاديان والشيع الجديدة .

هنا تستقبل القسم الثاني من هذا الجزء الاخير . وهو مما يهم كل شرقي من مراكش غربا الى انجاد الهند ومغاور بلاد التتار وهضابها دون استثناء اذ هي

تبحث عن كل من له علاقة بالحالة الحاضرة منذ ابتداء دبيب النهضة في جميع هذه الجهات . انما تركية ومصر تحتلان الجزء الاكبر منه . ولا غرو فلتركية نهضة بل نهضات اهمها منذ عهد مدحت باشا الى اليوم . وكذلك مصر فلها مكانها الزاهر في فجر النهضة الشرقية منذ تلك البرهة السعيدة التي تسلط فيها محمد علي عليها فانبثق من النهضة ينبوعها الاول .

فالبارون يحدثنا عن تركية عن اولى علائقها باوربة عموما وفرنسة خصوصا فعن حوادث التجدد التي كان مصطفى الثالث اول مضرم لها . فسليم الثالث فالسلطان محمود الثاني ثم عن رشيد باشا الذي بذل جهدا في تحديد بلاده وانهاضها وهو ممن لا يأس به .

اما الشخصيات البارزة اليوم في نهضة تركية على العموم فثلاث : مدحت باشا واحمد رضا ومصطفى كمال . فهؤلاء تعاقبوا بالتتالي واحدا تلو الاخر . فكان مدحت وكان ان خلع وابلى واسقط عبدالعزيز واجلس مرادا وخلعه وملك عبدالحميد طالبا للحصول على فائدة للبلاد . ولكن الاخير لم يدعه يبحث عما هو افضل لانعاش البلاد . فنفاه الى الطائف حيث قتل على الارجح . وتلاه احمد رضا صاحب الافكار المطلقة والتي باعمال عظيمة اهمها اسقاط دولة وجبروت عبدالحميد مع طغمته واجلاس رشاد . ويأتي بعد ذلك الغازي مصطفى كمال من يعزى اليه الفضل الاكبر في انهاض تركية من كبوتها بعد ان كادت ايدي التفرقة والخراب والظلم تعمل بها عملها المعلوم . فنعرف حقيقة ما قام به لا كما يتحدث اصحاب الغايات بل كما يدل عليها الدرس والبحث الدقيق .

ثم يختم كلامه عن تركية بلمحة عن آداب اهلها العصرية والتعليم العالي بها . وعن بعض مؤلفاتهم العصرية الشهيرة الفلسفية وسواها .

ويأتي الى مصر فنهضتها تأخذ شرارتها منذ عهد رأس الاسرة العلوية المالكة محمد علي الكبير فاعمال الاصلاح «والترميم» وارسال البعثات الى اوربة وقدوم الاساتذة الاجانب الى مصر كبكوت بك للطب وسيف (او سليمان باشا الفرنساوي كما يعرف اليوم) للحربيات وفتح قناة السويس في عهد اسماعيل ثم عن الجامع الازهر فالشيخ عبده والشيخ الطنطاوي فيقظة الاسلام في مصر وعقد المؤتمر في محطة

كل هـذه تتردد بين الصفحات وهي التي كان لها رد فعلها الحسن اليوم في النهضة الجديدة .

لا نود ان نتوسع اكثر عن الحوادث المصرية وايرادها فهي معروفة لدينا كما انه لا يمكننا ان نأتي بتعليقات البارون عن مختلف حوادثها وانما نحيذ او يسعى من يقرأ كلمتنا هذه من المصريين الكرام بنشر هذا الكتاب بين ابناء وطنه لما يتضمنه عن بلادهم وعما اخرجته من قادة الافكار لانها اليوم مديرة الحركة الاسلامية . ولذا نكتفي بما اوردناه وكفى بذا خير اشارة .

ثم تحدث عن بلاد العرب وافريقية عن دعوة الوهابيين منذ ان نهضت حركتها فتسلطها وكسر محمد علي لشوكتها الى نهوضها فتربعها في دست الحكم اليوم . وكذلك حدثنا عن الاسلام في افريقية وتطوره الى اليوم .

في الهند ايضا للاسلام مظاهر وافكار . فوجب تخصيص فصل ببعض توسع عن حركاته وسكناته وكذلك قل عن بلاد فارس وبلاد التتار ثم يختم الكتاب بفصل عن المرأة المسلمة وعن النساء ذوات الاثر فيه حديثا .

وينتهي هذا الجزء بل هـذا العمل الرائع بملحوظات وكلمة شبه ختامية يفسر فيها بيان مقصده من الكتاب الى ما هنالك من فوائد ومذكرات .

كلمة ختامية

هذه هي شبه خلاصة عن سائر محتويات هـذا العمل الفريد وانني لي ان اصفه بما اوردته ما تضمنته خمسة اجزاء ضخمة او ما يضيف على الفي صفحة من جلائل الفوائد ولم يقتصر الامر بها على ايراد النتائج والوقائع بل تعداه الى اتباع كل جزء فوائد وملحوظات تختلف من اربع صفحات الى ست وسبع مدونا فيها كل ما ظنه — بل وجده ذا فائدة عظيمة — يستمد منها الطالب درراً وقدرتها بحسب المواضيع وتخاصيص كل جزء . داعيك مما قد جمعته رؤوس الاقلام والمذاكرات في اثناء تعاريج تلك البحوث مما يطفح اناء القارئ وكما قلت في مقدمة بحثي اني لن آتي بثاقب فكره في مواقع الكتاب بل ساكتفي ببسط مضامينه لاثبتها على صفحات « لغة العرب » الغيرة ولست فيها غير محدث مخبر ومع ذلك لم اقدر ان اذكر سوى اهم الحوادث واهم مضامينه وعبرت عن الشيء الكثير

وما قصدي من وراء هذا البحث سوى ان تتمكن من القيام بواجب الشكر لاحد جلائل اعمال المستشرقين الكبار الخالدة .

اما طبع وتجليد هذا الكتاب فهما غاية في الجودة والابداع — على الرغم مما نالني في جزئه الثالث من حظ عاثر شأنه معي في اقتناء الكتب على الدوام — والكتاب من كافة جهاته هو بغية الشرقيين ومطلبهم .

واني ارجو بذا وكلي امل ان اكون قد قربت الى الافهام قيمة هذا الاثر الخالد الذي قلت اشباهه وندرت امثاله وفاضت فوائده .

مسك الختام

والآن امام هذا لا يسعنا إلّا ابداء شكرنا للبارون الفاضل على ما جاد به من جهد وعناء صرفهما في القيام باعداد عمله المذكور وابرازه تحفة انيقة مفيدة في حلته القشيبة .

فحبذا من جانب الشرقيين الالتفات والشكر وحبذا من الشرق معرفته واقراره بالجميل .

وحي على الفلاح !!!

بركات (السودان) مشيل سليم كهيد

خاتم الدرر النادرة

ظللت بعد ان لازمت حجرتي ستة اسابيع وها انذا اذهب الى خزانة لندن لاشتغل فيها . واقامتي طول هذه المدة بين جدران غرفتي مكنتني من ان انهي « الدرر الكامنة » وقد ارسلت الى الهند بالاوراق الاخيرة ليتم طبعها . وقد بلغ عدد التراجم ٤٠٠٠ وسوف اضع فهرسا في الاخر اذكر فيه الاسماء المنسوبة التي يعرف بها اصحابها دون غيرها وهي لا توجد في النسخة الان إلّا ان معرفتها من الضرورة بمكان عزيز وإلّا فما امكن الاهتداء الى وجود اصحابها بالاسماء المذكورة دون المشهورة . وفي هذا السفر نواقص لا تنكر ولا سيما ان المؤلف نفسه لم يكن بيده إلّا مستندات سقيمة الخط وذلك ما يتحققه كل باحث مما يراه مكتوبا على الحواشي التي تطرز المخطوط الذي بيدي .

بكنهام (انكلترة) ف . كرنكو